الدرس الثالث/ التجديــد في الشعر الجزائـري:

إنّ التجديد اتجاه فني في الأدب، يتميز أساسًا بطغيان العاطفة على ما عداها من مقومات القول، يعني تفجر الأحاسيس والمشاعر وتماديها، ولعل ما يميز الاتجاه التجديدي في جميع الميادين الفنية وهو ما يكمن في اختيار الموضوعات، وفي المناخ العاطفي والشعوري وفي الارتكاز على الطبيعة وقوة الإحساس في التغيير سواء أكان النتاج الفني قصيدة أم كان رواية أم كان مسرحية.. وبصورة عامة صارت كلمة(**رومانسية**) تعني كل ما هو مقابل لكلمة (**كلاسيكية**)، وهذا ما يعني أنّ الرومانسية ترفض التقليد والسير على نهج الأقدمين، ومن ثم فالشاعر الرومانسي يعمل على أن يتحرر من القيود المختلفة، ويقدم كيفية جديدة في الإحساس والتعبير.. ويؤمن بالانطلاق والتحرر، وتعتبر الرومانسية أن (العقل) في ميدان الفن معارضًا (للخيال والإلهام الحر).

أولا/ المؤثرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية :

فإنّ الأوضاع المؤلمة التي فرضها الاستعمار الفرنسي آنذاك تعد مؤثرا أساسيًا في طغيان مشاعر الحزن والتشاؤم حتى غدت طابعًا عامًا يميز أغلب الإنتاج الشعري الذي ظهر في العشرينيات من القرن العشرين. ولعل هذه الموجة لم تنحسر إلا بعد أن تأسست(**جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**) وما حققته من انتصارات في الميدانين الاجتماعي والثقافي، مما كان له الأثر في الشعراء، للتحول من: الحزن والتشاؤم إلى التفاؤل والأمل. كما أن الحركة الوطنية متمثلة في (**حزب الشعب**) المعروف بنزعته الاستقلالية، شهدت تصعيدا حارّا في هذه الآونة. وقد قيل إن موجة الرومانسية تنتشر عادة(في المجتمع الذي بدأ يزحزح الأسس التي يقوم عليها البناء الاجتماعي و بدءا من بعض العادات والشرائع التي تحجرت مع مرور الزمن ولم تعد نافعة للمجتمع أو عاملة على إسعاده..).

ــ وجاءت **الحرب العالمية الثانية:** ونتج عنها انقلاب خطير من كل نواحي الحياة في المجتمع الجزائري ولا سيما في الميدان الوطني، وقد يكون تأثيرها على الشعراء عميقًا، لما تمخضت عنه هذه الحرب من تيارات شعورية وفكرية، وازداد الوضع سوءا وتدهورا وهكذا عادت نغمة اليأس والقلق من الحياة إلى الظهور في النصوص الشعرية بأكثر حدة، مما يدل على أنّ الأوضاع الاجتماعية التي هي وليدة التأثيرات السياسية والاقتصادية لها تأثير مباشر في توجيه الشعراء إلى الشعر الذاتي الوجداني الرومانسي، ويتجه اتجاهًا واضحًا إلى التعبير عن المشاعر الفردية وظهرت فيه انعكاسات التجربة الذاتية. ولقد تركت المآسي التي شهدتها الجزائرو في مقدمتها مأساة(8 ماي 1945) جراحات عميقة في

قلوب الشعراء لونت شعرهم بالحزن والتشكي، وعبأت شعرا آخر بالثورة والتمرد، والتعبير عن إرادة رافضة للواقع المفروض والتغني بالأحاسيس الذاتية الملتحمة بالمشاعر الجماعية.

ثـانيـــا/ المـؤثــر الثقــافــي:

أ/ التيــار العـربـــي: فقد كان الشعراء الجزائريون منذ بداية الحركة الأدبية على صلة بالإنتاج الأدبي الوافد من المشرق العربي والمهجر الأمريكي، وصلتهم به جعلتـهم يكتشفون في الشعـر جوانب جديدة تختلف عمـا ألفوه في الشعر التقليدي، واطلاعهم على الدراسات النقدية هنا وهناك وسعت معرفتهم الشعرية وأكسبتهم معلومات ومعارف غير تلك التي كانوا يقرؤونها في كتب النقد العربية القديمة. ومن المعروف أنّ معالم الاتجاه الرومانسي في الشعر العربي الحديث تكاد تنحصر في : (مطران خليل مطران) و(مدرسة الديوان) و(شعراء المهجر الأمريكي) و(جماعة أبولو). وهذا الوافد العربي كان له الأثر البالغ في توجيه الشعراء الجزائريين إلى التجديد .

*ــ ويعدّ(**الشعر المهجري**) الأقوى في التأثير وذا مكانة معتبرة في الشعر الجزائري الحديث، وأنّ أثره فيه لا يقل عن ذلك الأثر الذي تركته (مدرسة الإحياء والبعث) في الشعراء ذوي الاتجاه الإحيائي التقليدي. وكانت مجلة(**الشهاب**) في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين، مصدرا هامًّا للجزائريين لمن يرغب في الاطلاع على الأدب المهجري الأمريكي. ويعتبر(**رمضان حمود**) رائد الدعوة إلى التجديد من الأوائل الذين تأثروا بالأدب المهجري، وكان متأثرا إلى أبعد حدود التأثر بأدب(جبران خليل جبران) ولاسيما آراؤه الثورية الوطنية بصفة خاصة. وازدادت العناية (بالأدب المهجري) وخاصة لدى الشباب الذين برزوا في الساحة الأدبية بعد الحرب العالمية الثانية بصفة خاصة. وإدمان الشعراء الجزائريين على الاهتمام بالأدب المهجري والتأثر به راجع إلى ما يتميز به هذا الأدب من:

1) نزوعه إلى الثورة وتطلعه الدائم إلى الحرية.
2) الإيمان العميق بالوطن والوطنية
3) دعوته إلى الثورة والتمرد على الظلم.
4) تقديسه للطموح والتطور.
5) الاستمرار في المحاولات لتغيير الواقع إلى ما هو أفضل منه.
6) العودة إلى الطبيعة واتخاذها إطارا للمشاهد، وموضوعًا موحيًا وهامسًا.
7) نزوع الأدب المهجري إلى التجديد في بنية القصيدة، والهجوم العنيف على المدرسة الكلاسيكية.

ب/ التيـــار الغـــربي: لقد كان من المنتظر أن تكون الصلة المستمرة بالثقافة الفرنسية التي كانت مسيطرة على المجتمع طوال الحكم الاستعماري أن يتأثر الشعراء الجزائريون بالتيار الفرنسي الرومانسي ولكن شيئا من هذا لم يحدث أو قد حدث، ولكن بالنسبة لأفراد قلائل. فقد كانت صلة الشعراء الجزائريين بالشعر العربي أشد وأقوى وأمتن واستفادتهم منه أقوى وأغزر. ولقد بقيت الصلة بالأدب الفرنسي ضعيفة محصورة في بعض الأفراد الذين أسعفهم الحظ في تعلم اللّغة الفرنسية والإطلاع على آدابها. رغم أنّ الحركة الإصلاحية لم تقف يوما أمام هذه الصلة ولم تتقوقع ضد الإطلاع على الآداب الأجنبية والتزود منها، حيث يرى زعيم الحركة الإصلاحية(ابن باديس):(**لا ضير في الاقتباس من آداب الأمم الحيّة.. والجمود عن هذا الاقتباس هو علامة الموت في الأمم**). ويعدّ(**رمضان حمود**) من الأوائل الذين دعوا إلى الاحتكاك بالآداب الغربية والاستفادة منها وقد أوضح ذلك في مقال نشره(بمجلة الشهاب) تحت عنوان(**الترجمة وتأثيرها في الأدب**).

ثالثـــا/الخصائـــص الفنيـــــة: (الشعر الوجداني الجزائري)

كان لظهور الاتجاه الوجداني الرومانسي في الشعر الجزائري الحديث،الأثر الواضح في تطور اللغة الشعرية وإثراء المعجم الشعري بمفردات جديدة وإدخال بعض التراكيب ذات الدلالة الموحية التي لم تكن مستعملة من قبل، كما ساعد هذا الاتجاه على بروز التجارب الذاتية والالتفات إلى تصوير الطبيعة والربط بينها وبين الأحاسيس والمشاعر والتعبير عن العواطف الإنسانية بحرية وطلاقة، كما برزت محاولات التجديد في التعبير والتصوير والرؤية والموقف ومن بين ما حققه هؤلاء من تجديد وتطوير :

1/ التحول عن التقرير والمباشرة إلى التصوير:

لقد أخذ شعراء هذا الاتجاه يبتعدون عن الديباجة التقليدية القديمة التي من أبرز سماتها التقريرية والمباشرة، إذْ لم يعدْ هم الشاعر الوجداني مقتصرا على توصيل الأفكار إلى المتلقي، ولم تعد التجربة الشعرية تتم عن طريق التعامل مع الألفاظ تعاملاً معجميًا وظيفيًا، وإنما أصبح الشاعر على وعي تام بعملية الإبداع الشعري. وهذا ما نجده بصورة جلية عند (عبد الله شريط ومحمد الأخضر السائحي وأبو القاسم سعدالله والطاهر بوشوشي..). إن طبيعة الشاعر الوجداني المتمرد على القيود والقواعد العقلية المحددة جعلته يتمرد على القوالب المتوارثة وينأى عن الألفاظ والتراكيب ذات المعاني الذهنية الجامدة والدلالات المادية السطحية مفضلا تلك الألفاظ والعبارات القادرة على إثراء تجربته الذاتية والفنية الثرية بالإيحاء الفني والروحي، يقول **عبد الله شريط** :

هكذا يمحى الضياء من الأفــق ويخبو كما خبت أحــلامــي

ويموت الشعاع في قبضة الصمت وراء الــجبــال والآكـــــــام

وأرى الليـل قابـضا بيديـــــه عنق الكون باردا كالحمّـــام

جـــاء كاليأس ســاكنًا يتمشـى مثقل الخطو في فؤادي الدّامــي

أنت مــاذا يــا من يهيمن كالمـــو ت على هذه الحيـــاة أمامـي؟

2/ اللّغة الهامســة والموحيـــة:

لقد تغير مفهوم الشاعر الجزائري الوجداني، فلم يعد يقتصر على تلك الألفاظ الجزلة التي تراعي في اختيارها أن تكون ذات صلة قوية بالمعجم التراثي، ولم يعد يهمه التقيد بالتراكيب اللّغوية المستمدة من التراث، ولا الاقتصار على الألفاظ ذات الصخب الخطابي.. وإنّما الذي يهمه هو أن يجد اللّفظة المنسجمة انسجامًا طبيعيًا مع ما يحس به داخل أعماقه. ولذا نجد أكثر الشعراء الوجدانيين يميلون كل الميل إلى الألفاظ المؤثرة والهامسة والموحية، وهذه الخصيصة اللّغوية أصبحت ظاهرة بارزة لدى الكثير من الشعراء ومن بينهم(محمد الأخضر السائحي)، ولعل اختياره (همسات وصرخات)عنوانًا لديوانه لدليل على هذا الميل عنده إلى اللّغة الهامسة، يقول في قصيدة (**الشاعر**):

ذاهل ينظر كــالحليم فـــي الأفق البعيد

وادع النظــرة، والبسمة كـالطفل الـــوليد

سكن الكون، وأغفى كل شيء في الوجود

وهـو سهران وحيد، يـــرقب النّجم الـوحيد

هو ساحر..

3/ تآلـف مدركــات الـحــواس:

وتعتبر هذه الخصيصة من أبرز الخصائص الفنية التي سجلتها اللّغة الشعرية على يد الشعراء الوجدانيين، جرأتهم الواضحة على استخدام علاقة جديدة بين المفردات اللّغوية،لا تعتمد العلاقة التقليدية المعروفة بين الألفاظ باستخدام(**المجاز**) كما تعرفه البلاغة العربية: تشبيهًا واستعارة وكناية، وإنّما تقوم

على نقل الألفاظ من استعمالاتها القريبة المألوفة إلى مجالات أخرى بعيدة، تشعر بالابتكار والجدّة والخلق، وذلك باستخدام(**مجاز جديد**) يقوم على التآلف بين مدركات الحواس، والتجاوب بين المعطيات الحسية المختلفة من: ألوان وأصوات وأضواء، ونغمات وغيرها. هكذا فتكثر عندهم هذه التراكيب التي يذهب(**الخيال**) في بنائها، ويضفي عليها جوّا رمزيًا إيحائيًا مؤثرا، نتيجة هذه الاستعمالات الجديدة الغير مألوفة في علاقة المفردات اللّغوية فيما بينها.

ولعل الشاعر(**عبد الله شريط**) يعدّ من أبرز الشعراء الوجدانيين الجزائريين تمرسًا على هذا الأسلوب واستخدامًا له ولتبيان هذه الخصيصة، نأخذ هذه المقطوعة إذْ يقول في وصف (الصيف):

هو ذا الصيف يا فؤادي يطـل اللّفح من وجهه اللّهيث الجهيـد

تتدلى الأيّام مـن رأسه الأشـــ يـــب شعثًا كميّتات الـــجريـد

يا ليالي الرّبيع متنّ فـــي الشر خ صبايا، مكممـات الـــــورود

خنقت عطركنّ فـــي قلبي الأبـــ كـم ريح صفراء، تنخـر عـودي

إنّ الجدّة في هذه الصور جاءتها من تعامل الشاعر مع الموصوفات تعاملاً مبنيًا على تجاوب الحواس وتراسلها في نظرتها إلى الأشياء المعنوية، فتحولت من مجالها التجريدي إلى مجال آخر حسي، وبراعة الشاعر عندئذ تتجسم في بعث الحياة بالموصوفات، فإذا بها حيّة تنبض وتتحرك، فتحول(الصيف) في هذه اللّوحة إلى(**شيخ هرم**) جلله الشيب، كل ملامحه توحي بالشيخوخة والفناء، فاللّغة المعتمدة تفتح أمامنا آفاقًا من الرمز والإيحاء.

4/ المعـجـم الشعـري الوجـداني: لقد عرف المعجم الشعري تطورا ملحوظًا لدى شعراء الاتجاه الوجداني نتيجـــة جرأتهم في التعامل مع اللّغة، ليس فيها ذلك الحذر الشديد والتزمت المتطرف الذي لاحظناه عند شعراء الاتجاه التقليدي المحافظ، فبعد أن كان المعجم الشعري عند المحافظين لا يخرج عن دائرة الموضوعات الإصلاحية، أصبح على يد هؤلاء الوجدانيين الرومانسيين يتعامل مع ألفاظ جديدة مستمدة من الواقع المعاش أو من مشاهد الطبيعة وعوالم الذات، كما يتعامل مع اللّغة بجرأة لا تقف دونها الحدود العرفية والتقاليد الاجتماعية، ولا يتحكم في لغته أو معجمه الشعري أمر ما سوى

الخضوع لتجربته الشعرية. وكان لهذا الاتجاه الوجداني الرومانسي الجزائري الدور الفعال لظهور القصيدة الجديدة (الشعر الحر) ونموها وخاصة مع جيل الاستقلال **(الحداثة الشعرية)**.